الفصل الخامس

ميلاد البطل
فى الاسطورة والحكاية الشعبية والخرافية

« ان العالم كله يتحدث من خلال الرمز »

س • كريني

كلما تعمق الباحث دراسة الأدب الشعبى وسبر أغواره ، واطلع على الدراسات المختلفة التى عرضت له بالبحث والتفسير ، هاله عمق هذا الادب ، وأدرك أنه ما من ظاهرة تكتنفه الا لها أساس نفسى يستحق الكشف عنه • وربما كانت ظاهرة ميلاد البطل فى الاسطورة والحكاية الخرافية والشعبية على السواء ، من أهم الظواهر التى نصادفها فى الادب الشعبى العالمى كله ، والتى تستحق اهتمام الدارسين بها • والبطل هو ذلك الذى يولد غريبا وكأن الحياة كلها ترفضه ، ولكنه سرعان ما يشق طريقه ويتغلب على الصعوبات ، ويحقق فى النهاية هدفا يسهم فى صنع الصورة المكتملة للحياة •

وطبيعى أن تلقى هذه الظاهرة تفسيرات عدة من قبل الباحثين ، كل حسب تخصصه • فهؤلاء الذين يفسرون الاساطير والحكايات الشعبية تفسيرا طبيعيا ، يجدون فى تلك الظاهرة تشخيصا لظواهر طبيعية ، كأن يكون ميلاد البطل رمزا لشروق الشمس وهى تجتاز طريقها فى الظلام • كما أن هؤلاء الذين حاولوا جهدهم أن يبحثوا عن الاصل الاول للاسطورة ، يرون أن هذه الظاهرة ليست سوى انتشار للنمط الاسطورى الاول الذى ربما نشأ فى بلاد الهند • ومنهم اقتصر على دراسة هذه الظاهرة من الجانب الفولكلورى • أما هؤلاء الذين حاولوا تعمق هذه الظاهرة وتفسيرها وتوضيحها بحق ، فهم علماء النفس الذين خصصوا جزءا كبيرا من أبحاثهم حول هذه الدراسات الشعبية ، ونخص منهم بصفة خاصة « أوتورانك » و « س • ج • يونج » • وربما قدمته لنا هذه الدراسات النفسية التفسير المقنع الوحيد لتلك الظاهرة التى لم تقتصر على أدب شعبى محلى دون غيره •

وقبل أن نبدأ فى تفسير ظاهرة ميلاد البطل ، نود أن نقدم عـدة نماذج من الاساطير والحكايات الشعبية والحكايات الخرافيـة ، لكى ندرك القدر المشترك من الملامح الاساسية لميلاد البطل فى هذه الأنواع .

أما النماذج التى نقدمها من الاسطورة فهى تختص بنوع واحد منها وهى أسطورة البطل المؤلة . واذا كانت أسـطورة جلجامش التى سبق عرضها لم تذكر صراحة شيئا عن مولده ، فانه لا يخفى علينـا أن الاسطورة لم تذكر أباه فى حين أنها ذكرت أمه مرارا . وليس فى وسعنا أن نفترض فى هذه الحالة سوى أن جلجامش اما أنه تربى يتيم الاب ، أو أن أبا نفاه عنه وهو طفل ، كما يحدث فى كثير من الحكايات الاسطورية

على أن هناك أسطورة بابلية أخرى ترجع الى عام ٢٨٠٠ ق.م ، تحكى عن ميلاد الملك سرجون الاول . والملامح الاساسية لحياة هـذا البطل يحكيها هو بنفسه وفقا للمخطوط الذى عثر عليه . يقول سرجون : « أنا سرجون الملك القوى . ولدت من أمى العذراء البتول . أما أبى فلا أعرفه . ولدتنى أمى فى بلدة أزوربيانى على نهـر الفرات ، ثم أخفتنى بمجرد ولادتى فى مكان خفى . وبعد ذلك وضعتنى داخـل صـندوق وطرحتنى فى الماء . وحملنى الماء الى السقاء عكى . واحتضـننى عكى بقلبه الرحيم . وجعلنى بستانيا لحدائقه . وأبصرتنى عشتروت وأنا أعمل فى الحديقة فأحبتنى وجعلتنى ملكا (١) » .

أما أسطورة باريس فتحكى أن بريام ملك طروادة ولد له من زوجته هيكوبا ولد سماه هيكتور . وقبل ولادة هيكتور رأت أمه فى منامها أنها أحضرت كمية من الخشب وأشعلت فيها نارا أحرقت المدينـة . فلمـا طلب بريام تفسير رؤياه أخبر بأنه سيولد له ولد شرير . ولذلك فقـد نصحه المفسرون بأن يبعد ابنه عنه بمجرد ولادته . فلما أن ولد المولـد أعطاه بريام لعبد له يدعى أجيلاوس وطلب منه أن يحمله الى قمة جبل « ادا » ويتركه هناك . ورعت الطفل دبة مدة خمسة أيام . ثم مر

---

(1) Otto Rank : The myth of the Birth of the Hero, p. 14, 15 (Alfred A. Knopf Ing. 1959)

العبد بعد ذلك بالجيل فوجد الطفل سليما • فحمله معه الى منزله وسماه باريس • ولما كبر باريس واشتد ساعده وظهرت امارات بطولته أطلق عليه اسم الاسكندر • وعرف الابن حقيقة مولده بعد ذلك • ثم أقام بريام مبارزة ووعد الفائز بجائزة سخية • واشترك باريس فى المبارزة وكسبها • وفى الحال تعرف الاب على ابنه ، وأصبح الطريق ممهدا للابن لان يصبح ملكا (١) •

فاذا انتقلنا الى الحكاية الشعبية لنرى الى أى عدد تشترك ملامح البطل فى الاسطورة مع ملامحه فى الحكاية الشعبية ، فاننا نجد أن حكاية تريستان وايزولده الشعبية تحكى أن ريوالين ملك بارميناس قام برحلة الى بلاط الملك مارك ، ملك كورنوول وانجلترا • وأحب الاول « بلانش فلور » أخت الملك مارك وتزوجها • وحدث أن اشتبك ريوالين فى معركة ضد أعدائه • فأودع زوجته ، التى كانت على وشك الوضع ، لدى صديق له يدعى روءال • وولدت الام طفلا وماتت • وخشى روءال على الابن من أعداء أبيه فأشاع أنه ولد ميتا • وسمى الولد تريستان نظرا لظروفه الحزينة • ولما كبر تريستان فى رعاية روءال أسره تجار نرويجيون • ولكنهم تركوه عند شاطىء كورنوول خوفا من غضب الاله• وعثر جنود الملك مارك على الطفل ، وفرحوا به لمظهره القوى • وفى هذه الاثناء خف روءال للبحث عن تريستان ووجده ، وأفشى اليه سر ولادته الذى أخفاه عنه زمنا طويلا • حينئذ عرف تريستان أنه ابن أخت الملك مارك • فقدم نفسه الى الملك الذى فرح به أيما فرح وابقاه معه فى بلاطه (٢) •

أما بالنسبة للحكايات الشعبية العربية ، فقد وجدنا أن البطل روهزان فى حكاية عمر النعمان قد تربى يتيم الاب ؛ اذ أن أمه الرومية قد ولدته وهى هاربة من بيت الملك عمر النعمان • وبالمثل فقد وجدنا أن « شراكان » قد عاش حياته فى عزلة تامة عن أبيه عمر النعمان • كما أن الحكاية لاتخفى سيطرة الاب على ابنه وحقده عليه ؛ فقد طمع فى

---

(١) Rank : op. cit. p 23 24.

(٢) Ibid. p. 41, 42.

عروسه الرومية وتزوج بها غدرا ، كما أنه أقطعة جزءا من مملكته لكى يعيش بعيدا عنه •

فاذا انتقلنا الى حكاية الاسكندر الاكبر ، فاننا نتحدث عن روح العداء بين الاسكندر وبين أبيه الاصلى الملك المصرى نيكتانيبو . هـذا العداء الذى دفع الاسكندر الى قتل أبيه • كما أن الحكاية لا تخفى روح العداء بينه وبين زوج أمه فيليب • ومن ثم فان الاسكندر الاكبر وفقا للروايات الشعبية لـم يجد له أبا يرعاه •

فاذا شئنا أن نقدم نموذجا من السير الشعبية فاننا نستشهد بميلاد البطل فى سيرة الاميرة ذات الهمة • ونبدأ سيرة الاميرة حوادثها بتمجيد الحارث الكلابى بوصفه الزعيم الاول لاسرة بنى كلاب •

ولما كانت الحياة حركة دائبة فى سبيل الوصول الى الكمال ، فلابد أن يرث الابن البطل بطولة أبيه • وهنا تحكى السيرة عن ميلاد هذا البطل ، فتذكر أن زوجة الحارث الكلابى التى كانت على وشك الوضع ، رأت مناما أثارها وأزعجها • فذهبت الى مفسرى الاحلام لنقص عليهم رؤياها شعرا وقالت :

الا يا شيخ والبيت الحـــرام ... وحق منى وزمزم والمقـــام
رأيـت مناما يا هـذا عجيب ... فاصغ لقولى وفسر لى منامى
رأيت أنى فى صحراء عظيمة ... وبر فسيح حـولى والاكام
وتحتى تل عال من رمـــال ... وذيلى قد أنكشف والدمع هامى
ومن فرجى خرج للبر نـــار ... لهـا لهب وقـد زادت ضرام
لها ألوان غالبهـا ســـواد ... قد أنتشرت وأحرقت الخيـــام
وأحرقت القبائل والمنـــازل ... ودارت واستنارت فى الظـــلام
فانتبهت مرعوبـــة حزينـــة ... وهذا ما جرى لى فى المنـــام

وهنـا أجابها الشيخ مفسرا لها رؤياها شعرا كذلك • قال :

أخبرك بتفسـير المنـــام ... وما شفتيه فى جنح الظـــلام
يجى مولود منك كثير حـــرب ... له ذكر يدوم على الـــدوام
ويطلع فارسا بطلا شـــجاعا ... يثير الحرب فى جمع الانـــام

ويـــربى يتيمـــا بغـــير أب . ولا أم ويطلع بحـــر ظـــامى
ويأتى منه صنديدا مهابـــا لاهل الكفر يضرب بالحســـام
وهـــذا دل عنـــدى فى علـــومى . شرحته لكى بتفسير المنـــام (١)

وتستمر السيرة فتحكى أن الطفل ولد بعد موت أبيه وهروب أمه خوفا على ابنها من أعداء أبيه . ولكنها ماتت فى أثناء وضعها . وعثر الأمير دارم على الطفل فى أثناء نزهته ، فأخـــذه واحتضـــنه لانه لم يرزق بأولاد . ولمـــا كبـــر الطفـــل وظهرت امـــارات بطولته خشى الأمير دارم منه على نفسه . فقرر أن يخبره بحقيقة نسبه حتى يبعده عنه . ولما عرف جندبة — وكان هذا هو الاسم الـــذى أطلق عليه — تاريخ حياته خرج من عند دارم عازما على الانتقام من أعداء أبيه . وهكذا تعرف على قبيلته وأصبح البطل المرموق .

وهناك بطل آخر فى السيرة يحق لنا أن نذكره وهو بحرون ولـــد عبد الوهاب . لقد كان عبد الوهاب قد تزوج برومية حســـناء فى أثناء قتاله الروم ، ثم أسرت فيما بعد وهى على وشك الوضع . ولما خشيت على طفلها من الاعداء ، وضعته اثر ولادته فى صندوق وألقت به فى الماء ، ولهذا سمى فيما بعد بحرون . ولكن الطفل انتشل من الماء واحتضنه ملك الروم . ولما كبر انضم الى صفوف الروم محاربا فى جيش المسلمين وعلى رأسه عبد الوهاب . وبعد ذلك تعرف على أبيه عبد الوهاب فأعلن ولاءه له ولاسرته .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الحكايات الخرافية ، فاننا نجد أن ابعاد الطفل البطل عن أبويه فى زمن مبكر ، يكاد يكون ظاهـــرة عامـــة فى الحكايات الخرافية فى جميع أنحاء العالم . ولا يظهر الابوان على مسرح حياة الطفل الا بعد أن يقوم بمغامراته ويفوز بمطلبه . وسوف نشير الى نماذج من الحكايات الخرافية تؤيد ذلك فى أثناء تفسيرنا لهذه الظاهرة ، فلا داعى لذكرها الآن .

وربما استطعنا من خـــلال هـــذه النمـــاذج أن نلخص الملامح

---

(١) نقلنا الابيات كما هى فى السيرة . ج ١ ص ٥ (مكتبة عبد الرحمن احمـــد حنفى) .

الاساسية لميلاد البطل • فهو يولد لابوين مرموقين ؛ اذ أن والده غالبا ما يكون ملكا أو زعيما • وتلعب النبوءة دورها قبل ولادتـــه ، تلـك التى تطلع الاب أو الام على الدور الخطير الـــذى ســـيلعبه الابن • واستجابة لهذه النبوءة ، فان الطفل يبعد بمجرد ولادته • وتتفق كثير من الحكايات على أنه يلقى فى صندوق ويطرح فى الماء • ولكن الطفل ينقذه ـــ اذا استثنينا حادثة جندبة وبحرون وسنجد لذلك تفسيرا فيما بعد ـــ انسان رحيم فقير • وبعد أن يكبر الطفل ويكتشف نســـبه ، يحاول أن ينتقم من هؤلاء الذين تسببوا فى ابعاده • ثم يتعرف على أبيه فيما بعد أو يتعرف على أهله وينضم الى صفوفهم •

وتبدو علاقة البطل بأبيه خاصة ، واهية مضطربة فى كل هـــذه الاساطير • وقد رأى رانك أن يفسر هذا الاضطراب من خلال طبيعة البطل • وقد دعاه هذا لان يغوص فى النظريات الفرويدية التى ترد مثل هذه الاحوال دائما الى اللاشعور وما يستكن فيـــه منـــذ أيام الطفولة • اذ أن الاسطورة ليست سوى تعبير خيالى عن اللاشـــعور الجمعى الذى يعيش فى نفس خالق الاسطورة ، وهو يشبه الى حـــد كبير الخيال الطفولى ، وان تكن الاسطورة أكثر تمييزا وتعقيدا • وعلى ذلك فبطل الاسطورة يمثل أنا الطفل ، كما أن هذا البطل لا يمثل سوى شخصية خالق الاسطورة أو هو يمثل على الاقل جانبا من شخصيته(١)• ومن هنا يبدأ رانك فى عقد مقارنة بين تجربة الطفل المبكرة حتى يصل الى مرحلة تحقيق ذاته ، وبين تجارب البطل الاسطورى منذ أن يولد ؛ بل قبل ولادته ؛ حتى يصبح بطلا مرموقا مستقلا كل الاستقلال •

فمما لا شك فيه أن الطفل يظل فترة خاضعا لسيطرة والديـــه • ولكنه فى هذه الفترة تتحدد علاقته بالنسبة لابيه وبالنسبة لامه • وهو يميل ـــ طبقا لنظريات فرويد ـــ لامه ، على حين أنه يرى فى أبيه القوة المتسلطة التى تقف عقبه فى سبيل تحقيق رغباته • وعندما يكبر وعى الطفل يحاول شيئا فشيئا أن يستقل عن سلطة الاثنين • ولكنه ما زال

Rank : op. cit. p. 66.

يرى فى أبيه الحاجز الذى يحول دون هذا الاستقلال ، كما أنه يزداد ارتباطا بأمه • ولهذا فان عملية انتزاع الطفل من سلطة الابوين لا تتم فى سهولة ويسر • بل ان الابحاث النفسية أثبتت أن هناك من يفشلون فى تحقيق ذلك حتى فى مرحلة النضج الكامل • ولا تهمنا هنا حالة هؤلاء ، وانما تهمنا تجربة الطفل السوى وهو فى طريقه الى النضوج• ويشير رانك الى أن عملية استقلال الطفل يصحبها ازدراء لابويه ، فاذا به يزيحهما عن خياله ويحل محلهما من هما أرفع منزلة • حتى اذا تمت عملية الاستقلال ، اذا به يرى أبويه عاديين ، فلا هو يشعر نحو أبيه شعورا عدائيا ، ولا هو يرتبط بأمه كل الارتباط • على أن هذا لا يعنى أن أثر التجربة المبكرة قد زال من نفسه ، وانما هى تستقر فى اللاشعور لتظهر وقت الضروره بصورة أو بأخرى (١) •

فاذا حاولنا أن نقرن تجربة الطفل بحكاية البطل الاسطورى ، فاننا نلاحظ أن النبوءة تطلع الاب أو الام على خطورة الابن الذى سيولد لهما • وتكشف بعض الحكايات عن خوف الاب ، اثر هذه النبوءة ، من موقف ابنه منه بعد أن يولد ويكبر • ولذلك فهو يأمر بابعاده بعد ولادته مباشرة • أما الحكايات الاخرى فهى وان كانت لا تكشف عن هذا الخوف من جانب الاب ، الا أنها تصور ولادة الطفل بعيدا عن أبيه • واذا كنا نلاحظ أن هذه الحكايات لا تصور عداء الطفل للاب ، وانما هى على العكس تصور عداء الاب للطفل ، فان رانك يفسر ذلك من خلال ما يسمى بالاسقاط • على أنه اذا كانت الاسطورة ومثلها الحكاية الخرافية والشعبية غالبا ما تصور والد الطفل ملكا أو زعيما ، كما أنها تكشف عن حقده على هذا الابن الذى سيصبح بطلا كما تقول النبوءة ، فليس بعد هذا تعبير عن سيطرة الاب ، تلك السيطرة التى يشعر بها الطفل فى فترة مبكرة •

وعلى ذلك فعملية استقلال الطفل عن الاب تتم حقا فى الاسطورة من وجهة نظر رانك • أما ظاهرة الطفل الذى يوضع فى صندوق ويطرح

---

(١) Ibid p. 72 - 82.

فى الماء ؛ فان رانك يفسر ذلك من خلال دراسة علماء النفس للاحلام تلك الدراسة التى أثبتت أن الماء رمز للميلاد ، وأن الصندوق رمز لرحم الام • وفى هذا تعبير آخر عن أن الطفل وان كان قد انفصل عن أبيه ، الا أنه ما زال متعلقا بأمه (١) •

ثم يعثر انسان رحيم على الطفل ويأخذه ليرعاه ، كما أن زوجته تتولى رعايته حتى يكبر • هذا ما يتم فى اغلب الحكايات • أما ما وجدناه فى قصة جندبة من رعايـــة الامير دارم له ، فربمـــا كان الامير دارم تشخيصا آخر لسلطة الاب • فالحكاية تكشف دائما عن خوف دارم من جندبة وشعوره بالعداء نحوه . كما أنها تشير الى أن جندبة لم يكن يشعر بارتياح لبقائه معه • حتى اذا ما صارحه دارم بحقيقة نسبة ، تركه جندبة وولى هاربا الى قومه • أما رعاية الانسان الطيب الفقير للطفل ، فهى من وجهة نظر رانك رمز لمرحلة من النضوج تلى المرحلة السابقة ، وهى التى ينظر فيها الابن لابويه نظرة عادية تخلو مـــن الاحساس بكره للاب ، أو من الارتباط القوى بالام • وهى مرحلـــة تؤدى بدورها الى النضوج الكامل والاستقلال وتحقيق الذات ، تماما كما يحدث للبطل حينما يتم له تحقيق أهدافه ويصبح بطلا مرموقا • ولهذا فان البطل بعد تلك المرحلة يتعرف على والديه ويعلـــن الولاء لهما •

هذا هو تفسير رانك لميلاد البطل الاسطورى • وقد حدا به الى هذا التفسير ما رآه من قصور فى التفسيرات الاخرى غير النفسية • وحتى التفسير الانثروبولوجى ـــ وهـــو أقـــرب التفســـيرات الى الوضوح ـــ رآه قاصرا عن توضيح هذه الظاهرة من زواياها المختلفة• فالانثروبولوجيون وعلى رأسهم لورد راجلان يرون ظاهرة ميـــلاد البطل تعبيرا كلاميا عن الطقوس • وبما أن الطقوس تحيى ميـــلاد الطفل ، وفترة نضوجه فى سبيل الوصول الى البطولة ، ثم وفاته ، فان الاسطورة تحكى عن هذه الطقوس • ولما كانت المرحلة التى يمـــر بها البطل منذ أن يولد حتى يصل الى مرحلة التدريب خاليـــة مـــن

---

(١) Rank : op. cit. p. 73.

التجارب . فان الطقوس لا تحيى هذه الفترة ، وبالتالى فان الاسطورة لا تحتى عنها كذلك • وعلى ذلك فالبطل شخصية شعائرية تستخدم أدوات شعائرية لتؤدى أعمالا شعائرية • فالسلاح الذى يستخدمه البطل يختلف كل الاختلاف عن الأسلحة العادية ، اذ أن سلاحه سلاح سحرى وهو لازم له لكى يضرب الضربة الشعائرية • ولاتشهد الاسطورة بهذه الظاهرة ، ولكنها تظهر كذلك فى الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية (١) •

ولا يعارض رانك هذا التفسير ، ولكنه لا يجده موضحا للظاهرة من زواياها المختلفة • فلماذا يولد البطل يتيما فى كثير من الاحيان ؟ ولماذا يبعده الاب بعد ولادته مباشرة أثر نبوءة تخبره بخطورة الطفل؟ ولماذا يطرح به فى الماء بعد وضعه فى صندوق ؟ ثم لماذا يعثر عليه الرجل الطيب ويأخذه ليربيه ؟ كل هذه الظواهر رآها رانك تتطلب التفسير المقنع • واذا كانت هذه الظاهرة قد انتشرت فى الادب الشعبى كله فى جميع أنحاء العالم نتيجة انتشار الأصل الاول ، فهذا لا يبطل — من وجهة نظر رانك — السؤال عن سبب وجود هذه الظاهرة حتى فى الاسطورة الاولى •

غير أن هناك من علماء النفس من يرون أن تطبيق نظريات فرويد الجنسية على كل الظواهر النفسية وعلى كل تعبير أدبى فيه كثير من التعسف • ومن ثم فقد خرج هؤلاء بنظريات أكثر شمولا من نظريات فرويد •

وقد كان يونج أحد هؤلاء الذين رفضوا تطبيق نظريات فرويد على تفسير الادب الشعبى • فالاسطورة ومثلها الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية لا تعبر عن مشكلة جزئية ، وانما تعبر عن مشكلة كلية شبيهة بكلية الكون الذى نعيشه • وحينما حاول الانسان الاول أن يعبر عن احساسه بالكون المهول الذى يحيط به ، خلق صورة مصغرة للكون الكبير ترجمها الى أفعال وكلمات تفسر الاصل الكلى حيث يبدأ كل شىء والاصل النسبى حيث يعد هو استمرار لاجداده •

وقد بدأ يونج نظريته بتقديم نماذج شعبية لميلاد البطل يحاول

---

(١) Raglan : The Hero, p. 146 (London 1949).

من خلالها تأييد نظريته • فأتى بمطلع حكاية خرافية رويت عن التتار، وهو على النحو التالى : فى زمن بعيد للغاية كان يعيش طفل يتيم بدون طعام يأكله أو رداء يلبسه • كما أنه لم يجد الانسان الذى يعطف عليه • وذات يوم جاءه ثعلب وسأله : ألا يمكنك أن تصبح رجلا ؟ حينئذ أجاب الطفل : اننى لا أعرف نفسى ، حقا كيف يمكننى أن أصبح رجلا ؟ (١) •

لقد بدأ الطفل يتحرك فى الكون من خلال ضباب كثيف يحيط به • وما لبث أن شغلته مشكلة لا يدرك كنهها حتى آثارها الثعلب فى نفسه • فلما أدركها الطفل اذا به يتساءل فى حيرة : حقا كيف يمكننى أن أصبح رجلا !

وموقف هذا الطفل هو موقف كل بطل أسطورى ؛ فهم جميعا يسعون الى تحقيق الذات الكاملة من خلال ضباب كثيف • وشبيه بهذا الطفل ذلك الذى عهد اليه أن يرعى بقرة ، ولكنها ولت منه هاربة• فظل يبحث عنها طويلا حتى تعب ونام تحت جذع شجرة • فلما استيقظ أحس بأن سائلا فى طعم اللبن يتسرب الى فمه • فلما التفت حوله اذا برجل عجوز طيب يصب اللبن فى فمه • وسعد الطفل بذلك وتوسل الى العجوز أن يمنحه جرعة أخرى • ولكن الرجل العجوز قال له : كفاك اليوم هذا المقدار • لقد كنت على وشك الموت حينما أبصرتك• ثم طلب من الصبى أن يحكى له قصته • فحكى له الصبى ما حدث له • حينئذ قال له الرجل العجوز : انك يا بنى لن تستطيع أن ترجع الى الوراء بعد اليوم ، ولا مفر من التقدم الى أمام حيث الجبل الشاهق الذى يقع شرقا • ثم منحه العجوز النصيحة والتميمة عونا له فى رحلته (٢) •

فالصبى هنا تحتم عليه أن يتحرك الى أمام ، الى ذلك الجبل

---

(١) C. G. Jung and C. Kerényi : Introduction to a science of Mythology. p. 13 (London 1951).

(٢) Jung : The Phenomenology of the sprit in Fairy-Tales. p. 13, 14. (New York 1954).

الشاهق الذى يشبه ما تصبو اليه نفسه رفعة • وحيث أنه لم يستطع أن يحقق لنفسه ــ لاسباب داخلية وخارجية ــ المعرفة اللازمة التى يحتاج اليها ، فان هذا الاحتياج النفسى يتجسد فى شكل رجل عجوز حكيم يقدم له الغذاء الضرورى ، كما يقدم له الوسائل السحرية التى التى تعينه على تحقيق هدفه •

فعملية تحقيق الذات لا تنشأ ــ من وجهة نظر يونج ــ من دافع جنسى نتيجة حقد الطفل على أبيه فى زمن مبكر اثر احساسة بعلاقته بأمه التى يحبها كذلك بدافع جنسى ، وانما يسعى الطفل الى تحقيق ذاته استجابة لحقيقة روحية كبرى ، تلك التى تنتمى اليها الميثولوجيا الصادقة • ولكن ما طبيعة هذه الحقيقة الروحية ، وما علاقتها بالتجارب النفسية ؟ هذا ما يحاول يونج أن يشرحه من خلال نظريته فى النموذج الاصلى (١) •

وليس لهذا النموذج الاصلى طابع فردى ، وانما هو ذو طابع جماعى . لانه يعيش فى اللاشعور شأنه شأن الاحلام ذات الطابع الجماعى . والتى يمكن أن يراها الانسان فى كل زمان وكل مكان • فهما معا يعدان تركيبة جمعية للنفس الانسانية تورث ، شأنها شأن العناصر المورفولوجية فى الجسم الانسانى • وكما أن هذه الاحلام تنشأ فى حالة تنخفض فيها حدة الشعور بحيث يكف عن العمل فى الوقت الذى تتدفق فيه مادة اللاشعور ، فكذلك الحال مع الخيالات الاسطورية التى تنشأ عن النموذج الاصلى ، فالانسان البدائى لا يفكر عن وعى وانما أولى لنا أن نقول ان هناك شيئا يفكر بداخله •

والنموذج الاصلى عنصر قائم فى تكويننا النفسى ، وهو جزء حى وضرورى فى حصيلتنا النفسية . ذلك لانه يعد المنظم والمشكل والدافع لوعى الانسان • وهو حينما يظهر يكون له طابع روحى وسحرى • فكم منا يشعر بشعور مخيف ازاء القوى المهددة التى ترقد مكبلة بداخلنا،

---

(١) Jung : Introduction to a science of Mythology, The psychology of the Child Archetype, p. 105. 112 (England 1951).

ولا يتمنى فى هذه الحالة سوى كلمة السحر التى تخلصنا منها ؟ ان كلمة السحر فى هذه الحالة ما هى الا تعبير عن الدور الفعال للنموذج الاصلى الذى يرقد بداخلنا • واذا كان النموذج الاصلى أحد أقطاب لا شعورنا ، فان القطب الآخر المعارض له هو الغريزة • ويمكن مقارنة القطبين برجل عبد لغرائزة يسير بصحبة رجل أسير لقوته الروحية • كلاهما يجذب الآخر نحوه حتى ينتصر أحدهما على الاخر • ان مجابهة النموذج الاصلى والغريزة مشكلة أخلاقية على جانب كبير من الاهمية ؛ ولا يشعر بضرورة هذه المجابهة سوى هؤلاء الذين يشعرون بضرورة توحيد شخصيتهم •

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص فكرة يونج فى النموذج الاصلى فى انه الطبيعة الصافية غير الفاسدة فى الانسان • وهذه الطبيعة هى التى تدفع الانسان لان ينطق بكلمات أو يقوم بأفعال لا يدرك مغزاها • انه الهدف الروحانى الذى يسعى اليه الانسان ليحقق كماله . وهو البحر الذى تسعى اليه جميع الانهر . والجائزة التى يغنمها البطل نتيجة صراعة مع التنين والقوى المهولة • ويتميز الرجل البدائى عن الانسان الحديث فى أنه يستجيب كلية لهذا النموذج الاصلى . ولذلك فهو يخشى التجديد ويرتبط كل الارتباط بتراثه • أما الانسان الحديث فانه انفصل بعيدا عن جذوره ، لانه يركز كل نشاط تفكيره فى المجال الواعى الذى تتسم تصرفاته بأنها ذات جانب واحد ؛ وبأنها تنحو الى الاسراف •

وبهذا نكون قد وضحنا فكرة النموذج الاصلى بوصفه محتوى من محتويات اللاشعور الجمعى • فاذا حاولنا بعد ذلك أن نفسر ظاهرة ميلاد البطل من خلال ذلك . فاننا نجد أن حكاية البطل منذ أن يولد حتى يتحقق له النصر ، انما هى تعبير عن سيطرة النموذج الاصلى الذى يدفع الانسان الى الوصول الى الكمال • فالطفل رمز للكل المتكامل ، ذلك لانه يمهد الطريق الى التغييرات المستقبلة فى سبيل تحقيق الحياة الكاملة • فهو — شأنه شأن الحياة — مجرى يتدفق الى المستقبل ولا يتراجع الى الوراء •

ويكون الطفل الها فى الاساطير الكونية ، أما فى الحكايات الخرافية والشعبية فهو بطل انسانى له صفات فوق الطبيعة • والطفل المؤلة يشخص اللاشعور الجمعى بالنسبة لهذا الكائن الذى لم يكتمل بعد فى شكل انسانى • أما البطل الانسان الذى يكشف عن الطبيعة الانسانية فهو مزيج من الشعور واللاشعور الانسانى • ومن ثم فهو يمثل الشعور السابق الفعال لعملية التفرد التى تسعى الى تحقيق الكل •

أما الميلاد المعجز للطفل ، وكذلك المعجزات التى يصادفها فى حياته ، فهما يشيران الى الطريق الذى تخوض النفس تجربته فى سبيل تحقيق ذاتيتها • وحيث أن هذا يتم فى شبه اعجاز ، فان حياة الطفل مليئة بالمثل بالمعجزات • وبالمثل فان الاخطار التى يواجهها تشبه تلك الصعوبات الهائلة التى يواجهها الانسان لكى يصل الى الكمال • فالتهديد الذى يتأتى عن طريق التنين أو الافاعى أو الاشكال المهولة ، انما يشير الى الوعى الجديد الذى يسعى اليه الانسان وقد ابتلعه اللاشعور •

ثم ان موضوع « أصغر من الشىء الصغير ومع ذلك فهو أكبر من الشىء الكبير » ، هو جوهر حياة البطل وهو يجرى مع مصيره مثل الخيط الاحمر • فالطفل البطل وان كان أصغر من الشىء الصغير الا أنه كبير كبر الحياة •

واستبعاد الطفل لازمة من لوازم الميلاد المعجز ، وهو رمز آخر للصراع الذى يخوضه الفرد فى سبيل تحقيق الذات المتكاملة • ولا يتم هذا الا عن طريق اتحاد الشعور مع اللاشعور • وهذا الاتحاد يتطلب بدوره تضحيات يشير اليها نفى الطفل واستبعاده بوصف هذا خطوة أولى فى سبيل تحقيق الذات الكلية • فالطفل يبعد عن أبيه وعن أمه ، وليس هناك شىء يرحب بولادته على الرغم من أنه بشير المستقبل • ولا ترحب به سوى الطبيعة الفطرية التى تتمثل فى ذلك الانسان الفقير الطيب أو فى ذلك الحيوان الذى يتولى رعايته • فالطفل يعنى اذن شيئا يتحرك الى الاستقلال ، ولا يتم هذا الا اذا انتزع من

أصله لكى يعيش مع نفسه وحدها فيحقق ذاتيتها •

وقد نفاجأ بموقف متناقض فى حياة الطفل ، فهو يسلم عاجزا الى الاعداء المهولين ، بينما نجده يمتلك قدرة تفوق قدرة البشر العادية • على أنه من الممكن تفسير هذا نفسيا من حيث ان الشعور حينما يكون أسير موقف الصراع ، فان القوى المناضلة تكون مسيطرة عليه الى درجة أنه يخشى عليه من دخول منطقة الانعزال أى ، سكونه فى اللاشعور • هذا ما يخشى عليه على أى حال • على أن أسطورة ميلاد البطل تؤكد غير ذلك ، فالطفل رغم عجزه أمام القوى المهولة بحيث انه يبدو لاول وهلة أنها لا مفر مسيطرة وقاضية عليه ، الا أنه يشق طريقة رغم كل الاخطار •

ان دافع تحقيق الذات قانون من قوانين الحياة • ولهذا فانه قوة لا تقهر ، وان بدا تأثيره لاول وهلة غير واضح وغير محقق • وهذا الدافع تكشف عنه أعمال الطفل البطل المعجزة • انه بوصفه انسانا ، أصغر من الشىء الصغير ، وهو بوصفه معادلا للكون ، أكبر من الكبير •

اننا لا نعرف أنفسنا — كما يقول يونج — الا قليلا • ولذلك فنحن نفاجأ بتلك العجائب التى نختزنها داخل أنفسنا • أما الانسان البدائى فلم يكن فى حيرة من أمره ، اذ لم يكن لينفصل عن أعماقه وعن جذوره ، وقد حدث اسقاط لهذا الاحساس فى النموج الاصلى للطفل الذى يعبر عن الحياة الكلية وعن الانسان الكامل • ان الطفل يبعد وينفى ويسلم عاجزا الى القوى المهولة ، ولكنه مع ذلك يمتلك قوة الهية • وهو يبدأ حياة بدايتها غريبة ، كما أن نهايتها تبدو غير مؤكدة ، ومع ذلك فان حياته تنتهى بالوضوح والانسجام التام •

وبهذا نكون قد قدمنا تفسيرين نفسين لميلاد البطل الاسطورى • ومع أن هذين التفسيرين يختلفان فى أساسهما ، فانهما يلتقيان معا فى أن ظاهرة ميلاد الطفل البطل فى الاسطورة والحكاية الخرافية

والشعبية أساسها اللاشعور الجمعى • ومن هنا كانت ظاهرة ميـلاد الطفل البطل رمزا يحتاج الى تفسير • وما أحوجنا أن نفهم مغزى رموز الادب الشعبى كله ، فالعالم كله يتحدث من خلال الرمز كمـا يقول كرينى •